وجوه نورانية معاصرة: المطران أنطوان بلوم، الجزء الأول

المتروبوليت سابا (اسبر)

"أَرْغَبُ، يا رَبُّ، بِكامِلِ وَعْيِي، وَفِي كُلِّ ساعَةٍ، فِي أَنْ يَكُونَ لِي نَصِيبٌ فِي فِداءِ العالَمِ، وَفِي أَنْ أَظَلَّ نُورًا وَسْطَ العَواصِفِ، لِأَكُونَ واحِدًا مِن مَناراتِكَ.
أَذْهَبُ، يا رَبُّ، إِلَى العالَمِ لِأَعْمَلَ مَشِيئَتَكَ .كُلُّ مُشْتَهايَ أَنْ أَبْقَى، كَخادِمٍ أَمِينٍ، ثابِتًا فِي المُهِمَّةِ الَّتِي أَسْنَدْتَها إِلَيَّ، كَيْ أَلْقاكَ بِاسْتِحْقاقٍ." – المِيتْرُوبُولِيت أَنْطُونِي بْلُوم (١٩١٤-٢٠٠٣)

شاهِدٌ مُعاصِرٌ لامِعٌ لِما يَعمَلُهُ المَسيحُ في قُلوبِ أَتباعِهِ مِنَ المُحِبّينَ .رَجُلُ صَلاةٍ وَفَهمٍ روحِيٍّ مِنَ الطِّرازِ الرَّفيعِ. جَمَعَ في شَخصِهِ دَرَجَةً عالِيَةً مِنَ الأَمانَةِ لِإيمانِهِ بِالمَسيحِ، وَفَهمًا عَظيمًا لِلإِنسانِ، المُعاصِرِ بِخاصَّةٍ، وَعِلمًا وَلُغَةً لاهُوتِيَّةً راقِيَةً، وَحَنُوًّا حازِمًا وَغامِرًا في آنٍ. رَجُلُ حِوارٍ وَمُقابَلاتٍ مِنَ الطِّرازِ الرَّفيعِ. عُرِفَ بِنَظَرِهِ الثّاقِبِ لِلأُمُورِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى التَّحْليلِ وَمَعْرِفَةِ الواقِعِ قَبْلَ إِطْلاقِ حُكْمِهِ وَرَأْيِهِ. ما لَقِيَهُ أَحَدٌ إِلَّا وَتَأَثَّرَ بِهِ إيجابًا.

وُلِدَ في سُويسْرا، حامِلًا اسمَ أندريه، لِوالِدٍ يَعمَلُ في السِّلكِ الدِّبلوماسيِّ الرُّوسِيِّ، ثُمَّ انْتَقَلَت العائِلَةُ إِلَى إِيرانَ بِسَبَبِ عَمَلِ الأَبِ، وَانْتَهَى بِهَا المَطافُ فِي فَرَنْسا، بَعْدَ الثَّوْرَةِ الشُّيُوعِيَّةِ.

اضْطُرَّ والِدُهُ إِلَى التَّخَلِّي عَن مِهْنَةِ الدِّبْلُوماسِيَّةِ، وَعَمِلَ فِي أَمَاكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ، مَا جَعَلَ العائِلَةَ تَعِيشُ فِي فاقَةٍ شَدِيدَةٍ. لَكِنَّ شَخْصِيَّتَهُ المُمَيَّزَةَ تَرَكَتْ تَأْثِيرًا عَلَى أندريه. قالَ لَهُ مَرَّةً: "لا تَنْسَ أَبَدًا أَنَّهُ لا يُهِمُّ إِذَا كانَ عاشَ المَرْءُ أَوْ ماتَ. المُهِمُّ هُوَ ذَاكَ الَّذِي مِن أَجْلِهِ نَعِيشُ وَمِن أَجْلِهِ نَكُونُ عَلَى اسْتِعْدادٍ لِلْمَوْتِ." يَدُلُّ كَلامُ الوالِدِ عَلَى الرُّوحِ الَّتِي سادَتْ فِي البَيْتِ، وَعَلَى أَهَمِّيَّةِ مَعْنَى الحَياةِ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا المِطْرانُ أَنْطُونِي مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفارِهِ.

مَكَّنَهُ ذَكاؤُهُ الحادُّ مِنَ الاسْتِمْرارِ فِي إِعْطاءِ الدُّرُوسِ الخُصُوصِيَّةِ فِي الحِسابِ وَكُلِّ ما كانَ طُلّابُهُ يَجْهَلُونَهُ وَيَعْرِفُهُ هُوَ؛ مِمّا أَمَّنَ لَهُ نَفَقاتِ المَعِيشَةِ وَمُتابَعَةِ دِراسَتِهِ، وَلَكِنْ بِمُعاناةٍ وَجِهادٍ.

فَقَدْ كانَتْ هذِهِ الدُّروسُ تَمْلَأُ كُلَّ أُمسياتِهِ، فَلا يَتَبَقّى لِدِراسَتِهِ هُوَ إلّا عُطْلَةُ نِهايَةِ الأُسْبُوعِ، مِمّا عَرَّضَ صِحَّتَهُ لِلاعْتِلالِ، وَلَكِنَّهُ اسْتَطاعَ إكْمالَ دِراسَتِهِ. قالَ عَن تِلْكَ الفَتْرَةِ: "كانَتْ حَياتِي مُخْتَلِفَةً عَنْ حَياةِ طالِبٍ هذِهِ الأَيّام؛ كُنْتُ، فِي بَعْضِ الأَوْقاتِ، قاسِيًا، جائِعًا وَخَشِنًا، وَما اسْتَطَعْتُ أَنْ أَعِظَ عِظَةً رَقيقَةً وَدافِئَةً."

تابَعَ دِراسَةً فِي الفِيزْياءِ وَالكِيمْياءِ وَالبَيُولُوجْيا فِي السُّوربُون، وَمِن ثَمَّ دُرُوسَ الطِّبِّ، وَحَصَلَ عَلَى الدُّكْتُوراه فِي فَتْرَةِ اندِلاعِ الحَرْبِ العالَمِيَّةِ الثّانِيَةِ، أَي فِي العَامِ ١٩٣٩. وَكانَ قَدْ حَصَلَ عَلَى الجِنْسِيَّةِ الفَرَنْسِيَّةِ، فَعَمِلَ فِي بِدايَةِ الحَرْبِ وَنِهايَتِها طَبِيبًا جَرّاحًا فِي الجَيْشِ الفَرَنْسِيِّ.

حَتّى سِنِّ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ، لَمْ يَكُنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، كَما وَيَكْرَهُ الكَنِيسَةَ وَيَكِنُّ لَها شُعُورًا عَدائِيًّا .لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيُثِيرَ اهْتِمامَهُ، لا بَلْ كانَ يَمْقُتُ كُلَّ ما يَمُتُّ لِفِكْرَةِ الإِلَهِ مِن قَرِيبٍ أَو بَعِيدٍ.

وَلَكِنَّهُ عاشَ خِبْرَتَيْنِ روحِيَّتَيْنِ أَثَّرَتا فِيه. الأُولَى، وَكانَ فِي سِنِّ الحادِيَةَ عَشْرَةَ تَقْرِيبًا، حِينَ تَعَرَّفَ، فِي مُخَيَّمٍ صَيْفِيٍّ، عَلَى كاهِنٍ فِي الثَّلاثِينِ مِن عُمْرِهِ، أَثارَتْ مَحبَّتُهُ الحانِيَةُ وَغَيْرُ المَشْرُوطَةِ لِلأَوْلادِ اهْتِمامَ أندريه (أَنْطُونِي)، مِمّا دَفَعَهُ إِلَى التَّساؤُلِ عَنْ سِرِّ وَمَصْدَرِ هذِهِ المَحَبَّةِ.

أَمّا الخِبْرَةُ الثّانِيَةُ فَحَصَلَتْ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنَ المَدْرَسَةِ الدّاخِلِيَّةِ وَاجْتِماعِهِ بِالعائِلَةِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ تَحْتَ سَقْفٍ واحِدٍ، مِمّا مَنَحَهُ مَصْدَرَ سَعادَةٍ مُطْلَقَةٍ، فَأَدْرَكَ فِي تِلْكَ الفَتْرَةِ أَنَّ كُلَّ سَعادَةٍ بِغَيْرِ هَدَفٍ لا تُطَاقُ. فَقَرَّرَ أَنْ يُمْهِلَ نَفْسَهُ مُدَّةَ سَنَةٍ لِيَكْتَشِفَ ما إذا كانَ لِلْحَياةِ مَعْنًى ما، وَإلّا فَإِنَّهُ لَنْ يَسْتَمِرَّ فِي العَيْشِ.

وَمَضَتِ الشُّهُورُ وَلَمْ يَظْهَرْ فِي الأُفُقِ أَيُّ مَعْنًى، إِلَى أَنْ دَعاهُ قَائِدُ الشَّبِيبَةِ الرُّوسِيَّةِ إِلَى حُضُورِ مُحَاضَرَةٍ لِكَاهِنٍ دَعَتْهُ مُنَظَّمَةُ الشَّبِيبَةِ. رَفَضَ أَنْطُونِي الحُضُورَ بِعُنْفٍ قَائِلًا: "لَا تَهُمُّنِي الكَنِيسَةُ وَلَا أُؤْمِنُ بِاللّهِ. "فَأَقْنَعَهُ القَائِدُ بِالحُضُورِ كَرَمًى لِكَرامَةِ المُنَظَّمَةِ وَقَالَ لَهُ" :أَثْبِتْ حُضُورَكَ بِالجَسَدِ فَقَطْ .لَسْتَ مُضْطَرًّا إِلَى الإِصْغَاءِ إِلَيْهِ. "وَهَذَا مَا صَارَ، لَكِنَّهُ اكْتَشَفَ أَنَّ الكَاهِنَ كَانَ إِنْسَانًا عَظِيمًا.

وَعِندَمَا عَادَ إِلَى البَيْتِ طَلَبَ الكِتَابَ المُقَدَّسَ مِنْ أُمِّهِ، لِكَيْ يَتَأَكَّدَ مِنْ حَقِيقَةِ كَلامِ الكَاهِنِ بِنَفْسِهِ .وَبَدَأَ بِقِرَاءَةِ إِنْجِيلِ مَرْقُسٍ لِأَنَّهُ الأَقْصَرُ. لِنَسْتَمِعْ إِلَيْهِ وَهُوَ يَصِفُ خِبْرَتَهُ هَكَذَا:

"لَا أَدْرِي كَيْفَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا حَدَثَ .سَوفَ أَصِفُهُ بِبَسَاطَةٍ وَسَوْفَ يَفْهَمُ الَّذِينَ مَرُّوا فِي خِبْرَةٍ مُمَاثِلَةٍ مَا قَدْ حَصَلَ .بَيْنَمَا كُنتُ أَقْرَأُ بَدَايَةَ إِنْجِيلِ القُدِّيسِ مَرْقُسِ، وَقَبْلَ أَنْ أَصِلَ إِلَى الفَصْلِ الثَّالِثِ، وَعِيتُ حُضُورًا .لَمْ أُشَاهِدْ شَيْئًا .لَمْ يَكُنْ هَلْوَسَةً، بَلْ تَأَكُّدٌ بَسِيطٌ مِنْ أَنَّ الرَّبَّ كَانَ وَاقِفًا، وَأَنَا مُوجَدٌ فِي حُضُورِهِ، هُوَ الَّذِي كُنتُ قَدْ بَدَأْتُ قِرَاءَةَ سِيرَتِهِ كَرْدَةَ فِعْلٍ مُفَاجِئَةٍ وَإِرَادَةٍ مَرِيضَةٍ."

هَكَذَا قَرَأَ الإِنْجِيلَ عَلَى ضَوْءِ القِيَامَةِ الَّتِي كَانَتْ يَقِينًا وَوَاقِعًا لَا شَكَّ فِيهِ أَبَدًا.

فَلِأَنَّ المَسِيحَ كَانَ حَيًّا وَلِأَنَّهُ جَلَسَ فِي حَضْرَتِهِ كَمَا يَقُولُ، كَانَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَتَثَبَّتَ بِكُلِّ تَأَكُّدٍ بِأَنَّ مَا قَالَهُ الإِنْجِيلُ عَنْ صَلْبِ نَبِيِّ الجَلِيلِ كَانَ صَحِيحًا، وَأَنَّ القَائِدَ الرُّومَانِيَّ لَمْ يَكُنْ عَلَى خَطَأٍ حِينَ هَتَفَ: "حَقًّا كَانَ هَذَا ابْنَ اللهِ" (متى ٢٧: ٥٤).

هَكَذَا وَجَدَ ذَاتَهُ مُوقِنًا كُلَّ اليَقِينِ بِأَنَّ المَسِيحَ حَيٌّ، وَأَنَّ ثَمَّ أشياءَ لَا يَرْقَى لِوُجُودِهَا أَيُّ شَكٍّ، وَوَثِقَ بِأَنَّهُ سَيُعْطَى الأَجْوِبَةَ عَنْ الأَسْئِلَةِ الكَثِيرَةِ خِلالَ مَسِيرَتِهِ سَعْيًا لِاكْتِشَافِ حَقِيقَةِ الحَياةِ بِشَكْلٍ أَفْضَلَ. لَقَدْ دَفَعَهُ هَذَا السَّعْيُ إِلَى طَرْحِ الأَسْئِلَةِ وَاكْتِشَافِ المَزِيدِ مِنَ الأُمُورِ وَالسَّيْرِ قُدُمًا فِي سَبْرِ الأَغْوَارِ.

بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنْ مُمارَسَةِ الطِّبِّ نَذَرَ نَفْسَهُ لِلْحَيَاةِ الرَّهْبَانِيَّةِ، مُتَّخِذًا اسْمَ القُدِّيسِ أَنْطُونِيُّوسَ، لَكِنَّهُ عَاشَها سِرًّا بِسَبَبِ الحَرْبِ وَنَقْصِ عَدَدِ الكَهَنَةِ آنَذَاكَ. بَعْدَمَا رُسِمَ رَاهِبًا قَالَ لِأَبِيهِ الرُّوحِيِّ" :لَقَدْ رَسَمْتَنِي رَاهِبًا لَكِنَّكَ لَمْ تُعْطِنِي قَانُونَ صَلاةٍ قَطُّ؟ "فَأَجَابَهُ ذَاكَ" :أَيُّ قَانُونِ صَلاةٍ تُرِيدُ؟ أَنتَ رَاهِبٌ الآن – صَلِّ طِوالَ الوَقْتِ." وَلَمْ يُعْرَفْ أَمْرُ رَهْبَنِيَّتِهِ إِلَّا عِندَمَا رُسِمَ كَاهِنًا سَنَةَ ١٩٤٨.

استَمَرَّ فِي العَيْشِ طِيلَةَ حَيَاتِهِ البَاقِيَةِ، كَاهِنًا وَمُطْرَانًا، رَاهِبًا حَقِيقِيًّا. يَقُولُ فِي مَعْرِضِ سُؤَالِ أَحَدِ الصَّحَفِيِّينَ لَهُ عَنْ كَوْنِهِ رَاهِبًا وَيُمَارِسُ الحَيَاةَ العَامَّةَ بِصِفَتِهِ كَاهِنًا وَمُطْرَانًا مَا يَلِي:

"سِيَّانِ عِندِي بَيْنَ العَيْشِ مَعَ النَّاسِ أَوِ العَيْشِ فِي صَحْرَاءَ .فَمِنَ الأَسْهَلِ فِي بَعْضِ النَّوَاحِي أَنْ يَكُونَ المَرْءُ فَقِيرًا فِي إِمْكَانَاتِهِ المَادِّيَّةِ عَلَى أَنْ يَكُونَ فَقِيرًا فِي حَيَاتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ. أَنَا مَدِينٌ لِلنَّذْرِ الفَقْرِ لِأَنَّهُ مَكَّنَنِي مِنَ الإِجَادَةِ فِي تَقْيِيمِ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الإِنسَانُ حُرًّا فِي دَاخِلِيَّتِهِ أَوَّلًا."